الفصل الثاني

تفكيك الخطاب الديني التقليدي

1. تفكيك من أجل «تطوير» علوم الدين لا «إحياء» علوم الدين.
2. تفكيك الخطاب الديني .. بأي معنى؟
3. نقد تفكيكية ما بعد الحداثة.
4. تفكيك المرجعيات المغلقة للوصول إلى الدين في حالته البسيطة الأولى.
5. تفكيك المعاني المزيفة والأسطورية للنص المركزي.
6. ضياع المعنى والعقل في التيارات الدينية المغلقة وحركات ما بعد الحداثة.

الفصل الثاني

تفكيك الخطاب الديني التقليدي

1- تفكيك من أجل «تطوير» علوم الدين لا «إحياء» علوم الدين

من أسف أن حركة الإصلاح الديني التي ظهرت مع مطلع العصور العربية الحديثة، لم تنتج علومًا جديدة ولا واقعًا جديدًا، بل استعادت عصور الشقاق وحرب الفرق العقائدية والسياسية التي ضربت الأمة بعد مقتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ولن أدخلك عزيزي القارئ في جدال نظري عقيم حول الفشل الذريع الذي أنجزته حركة الإصلاح المدعاة، لكن سأقول لك شيئًا واحدًا، هو «من ثمارهم تعرفونهم»، وهنا أسألك ما ثمار دعاة ورواد تلك الحركة بعد مرور ما يقرب من قرن ونصف على ظهور طلائعهم الأولى؟

ثمارهم كما ترى أمة تتكالب عليها الأمم، والجديد مع حركة الإصلاح الديني الحديثة منذ القرن التاسع عشر أنها أنتجت أجيالًا وجماعات وفرقًا من المسلمين تتكالب من الداخل على أمتها ووطنها، وهم شركاء أصليون في حالة الضعف التي تعيشها، وهم فاعلون بامتياز في بذل الوسع في هدم المعبد على كل من فيه من خصومهم ومن أنفسهم!.

وربما يكون من أهم أسباب ذلك غياب العقلانية النقدية، على الرغم من أن العقلانية النقدية في جوهرها هي التي قامت عليها دعوتنا منذ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهي العقلانية التي دعا إليها القرآن الكريم وقام عليها الشرع، والقارئ ليس بحاجة إلى أن أُعَدِّد له آيات القرآن وأقوال النبي الصحيحة التي دعت إلى استخدام العقل والتي قامت عليها حضارتنا قبل أن تتحول إلى عصور المتون والشروح والحواشي.

لكن مع الأسف مجددًا تصور المتأخرون العقل على أنه «العقل النقلي» لا «العقلي النقدي»! وهنا ظهر التطرف، وتجمد الخطاب الديني كما توقف الاجتهاد في علوم الدين، حيث المعالجة النقلية للعلوم، وحيث المعالجة الإنشائية المفرطة في الخطاب الشفهي والمكتوب. وظن المتأخرون أن هذه العلوم إلهية مقدسة، لا يكون التعامل معها إلا بالحفظ، وأن تصبح عالمًا هو أن تحفظ المتون وتقرأ الحواشي!.

إن العلوم التي نشأت حول الدين علوم إنسانية تقصد إلى فهم الوحي الإلهي، فالقرآن إلهي لكن علوم التفسير والفقه وأصول الفقه وعلوم مصطلح الحديث وعلم الرجال أو علم الجرح والتعديل... إلخ، علوم إنسانية أنشأها بشر، وهي قابلة للاجتهاد والتطوير والتطور، وهذه مسألة واضحة وليست اكتشافًا، لكن المتعصبين الذين تجمد معهم كل شيء، رفضوا الاجتهاد وتمترسوا خلف التقليد. وهم لا يعرفون - ولا يريدون أن يعرفوا - أن من المنطق الفاسد والخطل الزعم بأن أية علوم بشرية هي مبادئ وقواعد يقينية مطلقة تصلح لكل زمان ومكان. فالبشر ذوو عقول نسبية متغيرة، والحقيقة تتكشف تدريجيًّا ولا تأتي دفعة واحدة إلا من خلال «وحي»، بل إن الوحي

نفسه جاء منجمًا عبر ثلاث وعشرين سنة، وترك مساحة للجهد البشري في اكتشاف الحقائق والوقائع .. ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت: 20]، ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: 69]، والآيات ليست في الكتاب المقروء فقط، بل في الآفاق والأنفس أيضًا ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: 53]، والآيات ليست «كلمات» و«ألفاظ» تُتلى فحسب بل «وقائع» و«قوانين» يُبحث عنها وتُكتشف في الأرض والأنفس ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: 20 - 21]، كما أن الآيات «سنن» و«عبر» تُكتشف في التاريخ ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ﴾ [الروم: 42].

إن الوحي الإلهي بالنسبة إلينا نجده في الكتاب. وهذا الكتاب هو الكتاب الإلهي بالمعنى الواسع (الكتاب المقروء «القرآن» مُبَيَّنًا بالسنة الصحيحة، وهو أيضًا الكتاب المشاهد «السموات» و«الأرض»، وهو أيضًا «التاريخ» و«الأنفس»)؛ فكلها تشتمل على آيات إلهية كما نص القرآن الكريم. ومن ثم فإن على الإنسان أن يسعى لمعرفة الحقيقة بالبحث في الكتاب، والكون، وفي التاريخ والنفس، مستخدمًا مناهج البحث العلمي سواء في العلوم الطبيعية والرياضيات أو العلوم الإنسانية والاجتماعية. وهي علوم - مرة أخرى - متغيرة ومتطورة بتطور الجهد والاجتهاد البشري.

ولذا فإن **تجمد العلوم التي نشأت حول النص الديني** بَعُدت عن مقاصد هذا النص، وحولته من نص «ديناميكي» يواكب الحياة المتجددة إلى نص «إستاتيكي» يواكب زمنًا مضى وانتهى! واستمر الوضع هكذا على الرغم من

التغيرات الجذرية التي حدثت في الواقع وفي العلوم الاجتماعية والإنسانية. وعندما ظهر دعاة الإصلاح لم يقم أي منهم بمحاولة «تطوير علوم الدين»، بل قاموا «بإحياء علوم الدين» كما تشكلت في الماضي، ولم يقوموا بالعودة إلى الكتاب في نقائه الأول، بل عادوا إلى المنظومة التفسيرية التي أنتجتها ظروف سياسية واجتماعية واقتصادية لعصور غير عصورنا، ومن هنا استعادوا كل المعارك القديمة: معارك التكفير، ومعارك الهوية، ومعارك فقه الحيض والجنس والجسد، ومعارك التمييز بين الجنسين. ولم يدخلوا المعارك الجديدة: معارك التنمية، ومعارك إنتاج العلوم الطبيعية والرياضية والاجتماعية والإنسانية، ومعارك الفساد، ومعارك الحرية، ومعارك الفقر والجهل والأمية، ومعارك الدفاع عن الدولة الوطنية.

ومن هنا فإن تفكيك الخطاب التقليدي والبنية العقلية التي ترقد وراءه، بات ضرورة ملحة، لا من أجل «إحياء» علوم الدين؛ بل من أجل «تطوير» علوم الدين.

لكن التفكيك بأي معنى؟

2- تفكيك الخطاب الديني .. بأي معنى؟

إن الدين نفسه لا يتجمد، لكن الذي يتجمد هو عقول فسرت النصوص القرآنية والنبوية الواضحة والمباشرة، بأيديولوجيات عقيمة تجمدت معها المنظومة العقائدية والتشريعية في كهنوت بشري يتخفى في ثوب إلهي!

وهنا لا بد من تفكيك الفكر الإنساني المتصلب والمتقنع بأقنعة دينية؛ حتى يمكن كشفه أمام نفسه وأمام العالم. وهذا التفكيك ليس للدين نفسه

و إنما للفكر الإنساني الديني الذي نشأ حول «الدين الإلهي»، وصنع أنساقًا ومذاهب متضخمة مثل قصور من الخرسانة لكنها تقف على الرمال، وتنتظر من يحرك تلك الرمال حتى ينهار ما فوقها.

وعملية الانصهار أو التفكيك التي نتحدث عنها ليست على طريقة التفكيكيين الجذريين، مثل جاك دريدا، و إنما هي عملية تفكيك من أجل إعادة البناء على أرض نظيفة. فالتفكيك المرفوض هو الذي لا يعيد البناء؛ وهو التفكيك من أجل التفكيك، ونتيجته لا محالة هي الفوضى التي يريدها أعداء الإسلام والوطن سواء من الخارج أو من الداخل.

إن رفع الأنقاض ليس غاية، ولكنه وسيلة. ومأساة التفكيكيين الغربيين، ومن تبعهم من التفكيكيين العرب، أنهم يتخذون من عملية التفكيك نفسها منهجًا وغايةً! وهذا هو الفرق بين التفكيك المنهجي الذي ندعو إليه من أجل إعادة البناء وتجديد «أمر الدين» والتفكيك المذهبي المطلق الذي لا يدرك أنه يساهم في استمرار الفوضى الذهنية التي تسيطر على الساحة الفكرية والدينية والسياسية.

ومن دون التفكيك المنهجي لا يمكن الخروج من تلك الحالة من التجمد التي تسيطر على الخطاب الديني التقليدي منذ قرون طوال، ليس فقط فوق منابر الإعلام والوعظ، و إنما أيضًا فوق منصات تدريس العلم والبحث في العلوم الشرعية والإنسانية.

فما حدث في تاريخنا المتأخر أن تلك العلوم تجمدت؛ حيث كان جهد المتأخرين هو الشرح والتلخيص والمتون والحواشي، أما تطوير العلوم الشرعية فقد أصبح بدعةً وضلالًا، وهذا معناه التوقف عن الاكتشاف

والاستنباط والاجتهاد و إعادة الاجتهاد، ومعناه النقوص عن الأوامر الإلهية، ومعناه توقف التاريخ، ومعناه وأد مقاصد الوحي!

والسؤال: هل يمكن أن تستفيد عملية التفكيك العقلي للمنظومات الفكرية المتجمدة من عمليات شبيهة في الفيزياء؟ وهل يمكن أن يتجدد الخطاب الديني وتتطور العلوم الشرعية وهي في الوضع الذي هي عليه من التجمد؟

بطبيعة الحال أن معالجة التجمد في الفكر العلمي أو الديني لا يختلف كثيرًا عن معالجة التجمد في الطبيعة؛ فالمادة الصلبة أو المتجمدة عصية على إعادة التشكيل وغير قابلة للتطور دون تحويلها إلى مادة سائلة. والتجمد مصطلح فيزيائي يطلق على الحالة الصلبة للمادة عندما تتحول من حالة سائلة إلى حالة صلبة، وحالة مثل هذه أصابت الفكر الديني، لا بسبب من الدين نفسه، ولكن بسبب العقول التي تجمدت عند حدود التقليد؛ فالتقليد هو درجة الحرارة المنخفضة التي يتحول معها الفكر من «حالة مرنة ديناميكية» تأخذ شكل الواقع المتجدد إلى «حالة صلبة متجمدة» تأخذ شكل الواقع القديم المنتهي وتعاند الواقع الجديد والمتجدد، مثل الماء الذي تحوله البرودة إلى ثلج متجمد يناسب الإناء الذي تجمد فيه ولا يناسب إناءً جديدًا له أبعاد مختلفة. ومن الواضح أنه لا يمكن له أن يناسب هذا الإناء الجديد دون إعادة تفكيكه أو انصهاره أو تذويبه وتحويله إلى سائل مرة أخرى. فالسائل هو الذي يأخذ شكل الإناء، ولأنه سائل فإنه يتشكل بشكل جديد إذا وضع في إناء آخر.

والدين مثل الماء، الماء سبب للحياة المادية، والدين سبب للحياة الروحية، درجة الحرارة المنخفضة تحول الماء إلى مادة صلبة، والتقليد يحول

الفكر الديني إلى قصر من الخرسانة المتجمدة لكنه يقف على أقدام فخارية، الماء لا يمكن أن يُشرب ويرتوي منه الجسد دون أن يتحول إلى سائل مرن، والدين لا يحيي روح الإنسان ويُصلح الواقع المتجدد دون أن يكون الفهم الإنساني له متجددًا دومًا.

ومع أن التجمد حالة تحفظ الطعام من الفساد وتحميه من تكاثر الفطريات والبكتريا وتوقف التفاعلات الكيميائية مثل الأكسدة والتحلل والإرجاع، لكن التجمد في الفكر الديني أمر مختلف، فهو يؤدي إلى أكسدة الحياة وتحلل المجتمع بحكم زيادة الفطريات والبكتريا العقلية التي تضرب كل شيء! فربما يحمي التجمد الطعام أو المادة، لكنه في الفكر ينتج آثارًا سلبيةً تفسد كل شيء. وفي حالة مثل هذه لا يمكن أن يتجدد الخطاب الديني، كما لا يمكن أن تتطور علومه.

فالتجمد إذا كان مفيدًا في الطبيعة في بعض الأحوال، لكنه ضار بالدين والفكر في كل الأحوال. والحل هو أن نقوم بحالة تشبه ما نفعله مع «المادة الصلبة» في الفيزياء، فنحن لا يمكن أن نحول الماء المتجمد إلى الحالة السائلة التي ينتفع بها الجسد دون أن نلجأ إلى عملية «الانصهار»، إن الفكر الديني الذي تجمد بحاجة لعملية مثل هذه، وهو ما يطلق عليه عملية التفكيك.

3- تفكيك ينقد البشري ولا يتنكر للإلهي

إنك لا تستطيع أن تبني بناءً جديدًا على بناء قديم. هذه مسألة بديهية، ومع ذلك لا أدري لماذا يتجاهلها أغلب دعاة التجديد؟! إن الأمر يبدو واضحًا: لا بد قبل الشروع في تكوين وبناء خطاب ديني جديد، أن نقوم

أولًا بعمليـة تفكيك علمي للخطـاب الديني القديم الذي أوصـل أمتنا إلى ما وصلت إليه من خلل في التصـورات والرؤى الحاكمة، ليس للوجود والعالم فقـط، وإنما للواقـع المعيش وحركة التاريخ ومنطق التقـدم، وما ترتب على ذلك من اضطراب القيم الحاكمة للسلوك في الحياة اليومية والحياة العامة.

فعمليـة التفكيك لا بد أن تسـبق عملية إعادة البنـاء، لكنه - مرة أخرى - ليس تفكيكًا على شـاكلة المشـككين الذين يسـاهمون في استمرار عملية السـيولة التي تهدد الأوطان، وليس تفكيكًا عدميًّا مثل ذلك التفكيك المروع الـذي حدث مـع جاك دريدا ورفاقه في مرحلة ما بعـد الحداثة التي تنكرت لكل مرجع، وألغت كل جوهر، ودعمت اللامركزية والتشظي.

بينـما التفكيك الذي ندعو إليه هو النقد والتحليل العقلاني الذي يتمركز حول العقل المعياري، ولا ينكر الحقيقة الموضوعية، بل يدعو إلى اكتشافها، ولا ينكـر وجـود قيـم مطلقة، بل يتحـرى في الوصـول إليها بمعايـير علمية صارمـة. ولا يتنكر للإلهي، بل يقصد إليه شـعوريًّا في عمليـة توحيد خالية من الشرك ليس في العقيدة والعبادة فقط، بل في المعاملات والحياة أيضًا، ومن ثـم تمييز «الإلهي» عن «البشري» في الفكر والعلوم، **ونزع القداسـة الإلهية عـن المرجعيات البشرية** التي تنتحل الصوت الإلهي وتتحدث باسـم الحقيقة المطلقـة. ومن دون هذه العملية لن يمكن إعادة فتح باب الاجتهاد والتجديد الحقيقيين.

إن النزعة التفكيكية الجذرية، مثل النزعة العدمية، تزعزع أسس العلم والفكر العقلاني الذي يقوم على مفهوم «المركز الثابت للفكر» مثل (المعنى) أو (الذات) أو (الحقيقة) أو (فكرة السببية).

ولهذا، فإن التفكيكية الجذرية خطر، ليس على الدين فحسب، بل على العلوم الرياضية والطبيعية والإنسانية والاجتماعية؛ فالعقل الإنساني لا يمكن أن يصنع «علمًا» دون أن يكون له مركز أو فكرة حاكمة.

وهذا ما تنبه إليه «كانط» فيلسوف الإيمان العقلاني وكبير الفلاسفة الحداثيين، والذي شق طريقًا ثالثًا بين التجريبية الحسية والعقلانية الصورية، وأنقذ العلم كما أنقذ الإيمان، بمبدأ واحد هو «فكرة الله» اعتبار ذاك مركزًا للعقل؛ فهي تساعد على تجميع وتنظيم عمليات الفكر في نظام واحد له مرجعية كبرى توحده توحيدًا أكبر، وهذه المرجعية الكبرى هي علة نهائية لامشروطة، أي ليست معلومة لغيرها، أي الله. وهذه العلة اللامعلولة (أي لا علة لها) تقوم بتنظيم أفكارنا في نظام واحد، لأنها تقدم لرجل العلم خلفية من المعقولية والوحدة لا بد أن يكون عليها «العالَم» إذا ما أردنا تكوين قوانين ونظريات علمية عنه ذات طابع شامل متكامل موحد.

وكما تقوم «فكرة الألوهية» بدور معرفي تنظيمي توحيدي ضروري للعلم، فكذلك شأن «فكرة النفس» و«فكرة العالَم»؛ ففكرة «النفس» تبدو على أنها «الموضوع المشترك» الذي تستند إليه في النهاية الظواهر الباطنة؛ إذ لا بد معرفيًّا من افتراض «ذات» تقف خلف جميع «الأحوال الشعورية»، كما أن فكرة «العالَم» تبدو على أنها مجموع الظواهر؛ إذ لا بد معرفيًّا كذلك من افتراض أن هناك «كُلًّا غير محدود» ترتد إليه الظواهر الجزئية. يقول كانط: «لا يوجد للأفكار المفارقة أي استخدام بنائي على الإطلاق .. لكنْ لها من جهة أخرى استخدام تنظيمي جيد وضروري لا يمكن الاستغناء عنه، وهو إرشاد الفهم إلى غاية محددة، وحتى تتجمع الخطط الموجهة لكل قواعد الفهم في نقطة

واحدة صالحة أو مناسبة لإمداد تصورات الفهم بأكبر وحدة وأكبر اتساع ممكن»، وهي نقطة بؤرة مركزية توجد خارج حدود التجربة الممكنة تمامًا. وهي بؤرة لا يمكن الاستغناء عنه حينما نريد أن نرى الموضوعات البعيدة وراء ظهورنا بالإضافة إلى الموضوعات القريبة من بصرنا. وما يسعى العقل إلى تحقيقه هو تنظيم المعرفة؛ أي ترابطها طبقًا لمبدأ تنظيمي للعقل يعطي وحدة أكبر من تلك التي يصل إليها بالفعل الاستخدام التجريبي للفهم.

إذن فحاجة العقل إلى «مركز» ليست مجرد حاجة إيمانية، بل حاجة علمية لتنظيم المعرفة حول مبدأ يعطي لها وحدة لا يمكن أن تقدمها التجربة وحدها.

من الواضح هنا أننا دخلنا في هذا الاستطراد؛ حتى نبين زيف التفكيكية الجذرية عندما ترفض مفهوم «المركز الثابت للفكر»؛ فالعقل الإنساني بلا مركز لا يصل إلى وحدة تنظيمية لمعارفه، ومن دون هذه الوحدة لا يمكن أن يقوم العلم بقوانينه ونظرياته؛ فالقانون هو «وحدة وتوحيد» لظواهر جزئية مشتتة، وكل قانون يفترض قانونًا آخر أعلى وأشمل منه. وأتصور أن هذا هو المبدأ نفسه الذي يقوم عليه الإيمان من رد الكثرة إلى الوحدة.

4- تفكيك المرجعيات المغلقة للوصول إلى الدين في حالته الطبيعية الأولى

إن التفكيك الذي يحتاجه الخطاب الديني، ليس تفكيكًا يتنكر لكل «مركز» مثل التفكيك الجذري في مرحلة «ما بعد الحداثة»، وإنما هو تفكيك يريد العودة للمراكز الأولى للعلم والفكر والدين، وبهذه العودة سوف يتم

الالتقاء مباشرة مع الدين الأول الخالص في نقائه وخصوبته الأولى، وبالتالي سوف تنهار كل المذاهب المغلقة والمراكز المزيفة التي اصطنعها التطرف والاستبداد، كما سوف تنهار كل التأويلات البشرية التي اصطنعها فقهاء السلطان وفقهاء البحث عن السلطان! وهنا تصبح الأرض ممهدة لتأويل جديد يأخذ بأسباب الاجتهاد ويأخذ بأسباب العصر.

إن حالة الجمود المطلق على المنظومات القديمة ليست مجرد جاهلية جديدة تعجز عن مواكبة العصر، بل خروج عن حركة التاريخ. وهذا ما نعيشه الآن على الرغم من كل مظاهر الحداثة الزائفة التي نستوردها ونستهلكها حتى الإدمان، فأفكارنا تحلق في جاهلية جديدة متقنعة بأقنعة الحداثة، وعقولنا تعجز عن التفوق على الشرق، مثلما تعجز عن منافسة الغرب. هذه حقيقتنا دون شعارات جوفاء ودون بطولات ومعجزات مصطنعة!.

وحالة الجمود المطلق لا تقل سوءًا عن حالة التفكيك المطلق التي يريد البعض أن يُوقعنا بها في رمال متحركة يستحيل معها وجود حد أدنى ثابت للمعنى أو القيم أو الغاية القصوى. وهما حالتان نقيضتان نعاني منهما معًا؛ فالتفكيكية الجذرية التي تشكك في كل شيء، وتهدم كل المرجعيات بلا استثناء، في تصوري أنها تفكيكية مفرطة تنتج في المقابل رد فعل بالغ التطرف، فكل إفراط يطرح نقيضه من التطرف المقابل؛ ولذلك نحن لا نزال نعاني صراع المتطرفين: متطرفين في أقصى اليمين يتصارعون مع متطرفين في أقصى اليسار، ليس فقط في ساحة الخطاب الديني، وإنما أيضًا في ساحة «الصراع الاجتماعي» الذي غابت منه الطبقة الوسطى مثلما غاب «الوسط الذهبي» من الخطاب الديني.

وهكذا فإن الساحات كلها تعاني حالة «المرايا المتقابلة». ومشكلة المتطرفين أنهم عقول مغلقة تعود للإسلام ظاهرًا، والجاهلية روحًا ومقاصد، ومشكلة التفكيكين العرب أنهم يسيرون حذو النعل بالنعل مع التفكيكية الغربية التي جاءت تمردًا على أنساق الحداثة. وكلا الطرفين يقدم فلسفة للتشظي والهدم والإقصاء؛ وكلاهما يشترك في رفض الحداثة!

إن الوعي الأوروبي المعاصر سقط في حالة من الصورية والشكلانية مع البنيوية، ثم كان سقوطه الثاني في التفكيك الشامل؛ فالتفكيكية الغربية مدرسة تقويض ونقد شامل دون أية محاولة لإعادة البناء، وهي تنكر وجود أية قيمة مطلقة، وتقوض فكرة الحقيقة الموضوعية، وتحطم التمركز حول العقل Logocentricity. فالتفكيكيون الجذريون ينكرون الوجود الموضوعي للعالم الخارجي؛ ويعتبرون الأديان والعلوم مجرد تشكيلات وبنيات ثقافية اجتماعية ليس لها حقيقة موضوعية، والأشياء مشتتة لا يوجد نظام موحد يجمعها.

وتنسى التفكيكية الجذرية أن الإنسان لا يستطيع غالبًا أن يعيش الحياة من دون «مركز»، مثله في ذلك مثل الكواكب، والأقمار، والإلكترونات، في الطبيعة. وكثير من الناس - رغم مفاسدهم الأخلاقية - لا يمكنهم أن يواصلوا الحياة دون وجود وشائج بينهم وبين «مراكز» المعنى المطلق لحياة الإنسان الروحية: الله، الروح، إمكان العدالة المطلقة في لحظة ما في المستقبل. فلولا وجود تلك «المراكز» للحياة الواقعية لكان كل شيء مباحًا، ولانهارت منظومة القيم، ولانعدم معنى الحياة نفسها. ومن ثم فالتفكيكية الجذرية تخالف الموقف الإنساني الطبيعي؛ فالإنسان غالبًا لا يستطيع أن يعيش من دون اعتقاد (بالمعنى الواسع).

ولم تقدم التفكيكية الجذرية بديلًا مذهبيًّا يمكن الارتكان إليه، بل قدمت عدم اليقين، ودعت إلى الفردية المطلقة والنسبية المفرطة، وقلب نظام القيم والأخلاق، وفقدان الثقة في العقلانية وكل نظام أخلاقي يدور على مركز أو محور ثابت مثل الضمير أو الله أو الواجب... إلخ! فهي فلسفة هشة، وموقف يضيع معه الإنسان في هاوية لا قرار لها. وينسحب على التفكيكية الجذرية كل نقد تم توجيهه للفلسفات السوفسطائية والشكية واللاأدرية، فهي تحطيم للتمركز حول العقل، وقضاء على القانون والنظام، وتكريس لضياع الفعل الغائي، وسيادة للامعقول.

وفي المقابل فإن التفكيك الذي ندعو إليه لننجو من «الجاهلية الجديدة» و«التفكيكية الجذرية» معًا، هو - في إحدى معانيه - رد المُركَّب إلى عناصره البسيطة التي يتكون منها، وهو بهذا المعنى قريب من «التحليل» الذي يستخدمه الأطباء ليتعرفوا على المرض، ويستطيعوا أن يشخصوا الدواء حسب الخلل أو نوع الفيروس أو البكتريا... إلخ. ويحمل تفكيك الخطاب الديني شيئًا من هذا المعنى الطبي؛ فلا بد من تفكيك التراث ورده إلى العناصر البسيطة التي يتكون منها، حتى يمكن التمييز بين العناصر الحية والعناصر الميتة؛ ومن ثم يسهل استبعاد العناصر الميتة منه وإبقاء العناصر الحية ثم تنميتها وتطويرها وإضافة عناصر جديدة لها حتى تصير كائنًا حيًّا معاصرًا يحقق مقاصد الوحي ومصالح الناس ويقيم أسباب العمران.

وبالتأكيد إن هذا النوع من التفكيك سوف يرد الدين إلى حالة الوضوح الأولى التي كان عليها؛ بحيث يكون «النص الأصلي» هو المركز الحقيقي

للمعنى، وليست المذاهب المغلقة ولا المرجعيات البشرية التي كانت تفكر لعصرها هي وليس لعصرنا نحن.

5- تفكيك المعاني المزيفة والأسطورية للنص المركزي

لا مفر عند تكوين خطاب ديني جديد من تفكيك كل التأويلات المغرضة والجهولة بطبيعة النص، والتي حولت القرآن عن معناه الأصلي إلى أداة سياسية أحيانًا وإلى غطاء للأساطير أحيانًا أخرى، وهذه التأويلات - سواء كانت مغرضة أو جهولة - في «بعض» كتب التفسير الذائعة تجدها مستندة إلى إسرائيليات ومرويات موضوعة أو ضعيفة.

وفي هذا السياق لا بد من التأكيد على أن علماء التفسير والفقه وغيرهم ليسوا كلهم في كفة واحدة نحكم عليهم بالسلب أو الإيجاب؛ فمنهم من هو راسخ العلم والفهم، ومنهم من يحمل نصف علم وهذا خطر، ومنهم من لديه المعلومات لكن عقليته غير منضبطة ويفكر خارج الزمن والتاريخ، وهذا هو الأخطر. ومجددًا أؤكد أن من الخطأ التعميم. ومن أسف فإن بعض ناقلي الآراء يُحمِّلونها من المعاني ما ليس فيها، إما لأن هناك مشكلة في طريقتهم للفهم، وإما لأنهم يقصدون إلى الإثارة الإعلامية.

والتراث العربي - مثله مثل أي تراث آخر في الشرق أو الغرب - مليء بمثل هذه التأويلات المغرضة أو الجهولة، لكن التراث العربي قدم أيضًا لنا كثيرًا من التفاسير التي كشفت الزيف عن التأويلات المغرضة والجهولة، وفككت المعاني المزيفة والأسطورية التي قدمها بعض المفسرين الذين

يعتمدون على المرويات الموضوعة والضعيفة دون إعمال التفكير ودون التدبر في معاني الوحي وفق قواعد القراءة المنضبطة.

ومن نماذج التفاسير التي قدت نموذجًا من أفضل ما يكون في فهم الكتاب في ضوء الكتاب نفسه وروحه ومقاصده، تفسير الفخر الرازي «مفاتيح الغيب» المعروف بالتفسير الكبير. لكنه للأسف غير منتشر بين الناس على الرغم من أنه مطبوع أكثر من مرة. ويمكن القول: إن كثيرًا من الدعاة لا يقوون على قراءته. وفي المقابل يلجأون إلى تفاسير سهلة لكنها مشتملة على إسرائيليات، ومن أسف فإنها هي الشائعة بين الناس وبأرخص الأسعار، والعجيب أن كثيرًا من الدعاة والشيوخ ربما يعرفون هذه الحقيقة، لكنهم يستسهلون، ويريدون الاستشهاد بـ«حكايات» يدغدغون بها مشاعر العامة، ومرويات تقص العجائب والمفارقات، أما «الأفكار» فلا أحد منهم قادر على متابعتها أو إجبار ذهنه على فهمها ونقلها للناس! والدعاة الناجحون هم الذين يقصون القصص غير الحق، لكنه قصص مسلٍّ مثل الأفلام الهندية!

وأتذكر أنني التقيت أحد الإخوة الأفاضل المسؤولين عن قناة دينية فضائية شهيرة، وقلت له لا بد من التحول من مرحلة «الوعظ والإدهاش» إلى مرحلة «الفكر والتفكّر»؛ لأن الوعظ بهذه الطريقة ليست له أية نتائج إيجابية، فشعبنا «المتدين بطبعه» سلوكياته يعرفها الجميع! وهذا يعني أنه توجد مشاكل في طرق التفكير المحركة للناس، وتوجد إشكاليات في طريقة فهمهم لروح الإسلام ومقاصده وما يريده من الناس، ولا بد من قيادة الجمهور نحو إعمال الفكر والعقل في كل قضايانا. وكان اللافت للنظر

أن رأيي عجبه، لكن عندما رجع إلى المحرك الحقيقي للقناة ضرب بالكلام عرض الحائط، وحجته أنه يريد مشاهدة عالية و إعلانات، أي أنه يفكر في الدين مثلما يفكر المنتج السينمائي في «شباك التذاكر»!

ومن هنا فتفكيك تلك الذهنيات العتيقة والمنظومات الأسطورية التي أفرزتها والتي سارت بحضارتنا إلى هذا المنحدر التاريخي الذي نعيشه، بات ضرورة قصوى من أجل العودة إلى المنابع الأولى الصافية.

وهنا أيضًا تظهر أهمية عملية التفكيك من أجل فضح معاني وتأويلات الكهنة والساسة المتقنعين بالدين. وربما يقول قائل: «إن النص حمّال للمعاني، ومن العسير الوصول إلى معنى موضوعي».

نعم .. إن النص حمّال أوجه، لكن المعاني ليست مفتوحة بلا قيد ولا شرط، ومرونة النص في كثير من مواضعه لا تعني أنه لا تُوجد معانٍ مُحْكَمة وموضوعية، ولا تعني النسبية المطلقة للمعنى، ولا تستلزم ضياع الدلالة وسيولة المقاصد والأحكام، بل تعني أن النص «حي وديناميكي»، وليس ميتًا أو إستاتيكيًّا. وتوجد قواعد وشروط لاستخراج المعنى، كما توجد مناهج علمية لطريقة إنزاله على الوقائع المتغيرة.

فكلمات النص واضحة ومباشرة في الآيات المحكمات، أما الآيات المتشابهات فهي التي تجعل النص متجددًا لملاءمة تغير الزمان والمكان، وهنا دور الراسخين في العلم الذين يملكون شروط الاجتهاد واستنباط الأحكام. لكن كهنة الأديان الذين تجمدت معهم علوم الدين عهدناهم يستغلون «تعدد الدلالات» ليسقطوا أوهامهم على النص ويأخذوا منه مبررًا لكل هوى حتى لو كان إهدارًا للدماء وهتكًا للأعراض وتدميرًا لموارد الحياة

والحضارة والتمدن. وعلى مستوى آخر يحولون «المُحْكَم الواضح» إلى «مغلق غامض» يحتاج تفسيرًا، و«المباشر» إلى «غير مباشر» يحتاج وسيطًا؛ حتى يكونوا هم الوسطاء في الفهم؛ ويَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ ليعطونه معانيَ ليست فيه؛ وغالبًا تجدهم لا يفهمون الكلام على «قَدّ» الكلام، بل يلونون معانيه بأفكارهم ويزيدون معانيَ من عندهم، حتى يؤسسوا وصايتهم على الدين وعلى الناس! ولذلك فهم يرفضون التعقل النقدي والتفكير المنهجي اللذينِ ألح القرآن عليهما في تأسيس الإيمان وفي فهم نص الكتاب؛ فالعقلانية «انحراف» على الرغم من أن الكتاب نفسه اشتمل عليها، والتفكير «هَمّ» و«ضلال» على الرغم من أنه فريضة قرآنية!

6- ضياع المعنى والعقل في التيارات الدينية المغلقة وحركات ما بعد الحداثة معاً

من أهم تجليات الخطاب الديني التقليدي في التعامل مع النص أن أتباعه يعطون له معانيَ لا تعكس مقاصده، ولا تبالي بسياق آياته، ولا تفسر الكتاب بالكتاب، ولا تراعي قواعد اللغة والأساليب العلمية لفهمها واستنباط الأحكام منها.

إنهم يختزلون النص في مجموعة من آياته معزولة عن مجموع النص، ويأخذون حرفيًّا بالحدود والغنائم، عازلين السياق التاريخي والثقافي، ضاربين بالمقاصد العامة للنص عرض الحائط.

وكانت النتيجة هي تخريج كائنات لا تعرف إلا الجنس والدم والانتقام، كائنات تطبق فلسفة مكيافيلي بغباء تاريخي منقطع النظير إلا في عصور

الجاهليـة الأولى! فهم يفسرون النص في ضـوء ثقافة رجعية تكونت عقولهم في رحمها، وأصبحوا سـجناء لمذاهـب مغلقة لا يسـتطيعون تجاوزها إلى أية حقيقـة أو واقعة ما خارج عقلهم الجامد المتخشـب خارج حركة التاريخ، مهما كانت تلك الحقيقة ظاهرة وعينية في الواقع الخارجي.

ولأن كل فعـل له رد فعل، فإن ضياع معـاني النص الموضوعية مع تيارات التشـدد السـجينة في ثقافة رجعية، أعطى للتفكيكيين الجذريين المتشددين مـبررًا لرفض النـص و إنكار موضوعية أي «معنى» لـه؛ والنظر إلى «النص» باعتباره ممـزق المعنى ومفكك الدلالة، فليس له وحـدة معنى وليس له مركز ثابـت. أما العقل الإنسـاني فقـد ذهب هباءً؛ فـلا منطق لـه، ولا قواعد تلم شـتاته! ومـا حدث مع معنى «النـص» حدث مع معنى «الوطـن»، فصار بلا معنى، وأرضه صارت مجرد تراب.

وتتجـلى النزعة التفكيكية الجذرية في «ما بعد الحداثة» في تأكيدها على عجـز اللغة عـن أداء المعنى، ووجود تفسـيرات غير محـدودة ممكنة للنص، مـع غياب القدرة على الترجيح بين المعـاني؛ ومن ثم ضياع النص؛ يقول جاك دريدا: «لا يكون نصٌّ نصًّا إن لم يُخْفِ على النظرة الأولى، وعلى القادم الأول، قانـونَ تأليفه وقاعدة لعبه. ثم إن نصًّـا ليظل يُمعن في الخفاء أبدًا. وليس معنى هذا أن قاعدته وقانونه يحتميان في امتناع السر المطوي، بل أنهما، وببسـاطة، لا يُسـلمان أبدًا نفسـيهما في الحاضر لأي شيء مما تمكـن دعوته بكامل الدقة إدراكًا. وذلـك بالمجازفـة دائمًا (أي مـن لدن النص)، وبفعل جوهره نفسـه، بالضياع على هذه الشـاكلة نهائيًّا. من سيفطن لمثل هذا الاختفاء أبدًا؟ يمكن لخفاء النسج بأية حال أن يستغرق، في حل نسيجه، قرونًا».

ومن هنا، فكل قراءة عند جاك دريدا، ليست موضوعية، وكل تأويل هو نسبي، وكل محاولة لإدراك النص ليست نهائية؛ فالنص يظل يُمعن في الخفاء أبدًا! والإنسان «سجين اللغة»، ولا يستطيع عبورها إلى الواقع، بل إن اللغة هي مرآة غير دقيقة للواقع الذي نعرفه من خلالها، والإنسان لا يستطيع تجاوز ذاته إلى حقيقة ما خارج الذهن، فالموضوعية غير ممكنة؛ ولا شك أن في هذا عودًا من جهة للذاتية المفرطة المنكرة لوجود المعنى الموضوعي، وعودًا من جهة أخرى للاأدرية التي نعتبرها أيضًا أحد جذور النزعة العدمية.

ومن وجهة نظرنا إن هناك بالفعل جانبًا غامضًا في اللغة، يترك مساحة لتأويلات عديدة، لكن لا شك أيضًا أن هناك جانبًا يحمل معنى محددًا، ولولا هذا الجانب لما استطاع البشر التواصل، ولولاه لما استطاع دريدا أن يعبر عن أفكاره هو شخصيًّا! ولولاه - أيضًا - لما استطعنا فهم دريدا نفسه! ولو لم يكن للكلام أي معنى دلالي لما فهمنا معنى أي خطاب، ولما أمكنا فهم التفكيكية ذاتها، ولما استطعنا قراءة أعمال أنصارها وفهمها، ولشككنا في دلالة النصوص، ومنها نصوص دريدا شخصيًّا!.

وسؤالي إلى دريدا: إذا كنت متأكدًا من ضياع المعنى فلِمَ تكتب؟! أليس «فعل الكتابة» يستلزم أنك تقصد إيصال «معنى ما» إلى القارئ؟!

ومثلما عجزت «ما بعد الحداثة» عن القضاء على سجن «الأنساق المغلقة» عند ديكارت وليبنتز وهيجل، وإنقاذ الذات العقلانية من المذهبية الضيقة، عجز التفكيكيون العرب عن القضاء على سجن المذاهب الفقهية والعقائدية المغلقة.

ولم تضع العقلانية النقدية مع المتشددين والمتطرفين الدينيين فقط، بل

ضاعت أيضًا مع حركات ما بعد الحداثة؛ فكلاهما شريك في اللاعقلانية، وكلاهما شريك في ضياع المعنى، وكلاهما أضاع الإنسان. وبدلًا من أن يقفا ضد بعض شطحات العقل الحداثي وانحرافاته عن مبادئه الأولية وتهوره، عن طريق العقلانية النقدية مثلما فعل كانط في «نقد العقل»، أقول بدلًا من ذلك تحالفت تيارات التجمد وخصومها من تيارات التفكيك الـ"ما بعد حداثية» على نقد العقل وتفكيكه ثم إعدامه.

وهذه هي الخطوة الأخيرة لضياع «النص» وضياع «المعنى»، وهذه هي الخطوة قبل الأخيرة لضياع «الوطن»!

هنا يظهر أن تفكيك الخطاب الديني التقليدي، لا بد أن يصاحبه تفكيك مناظر لما بعد الحداثة؛ فكلاهما انحراف عن العقلانية النقدية والعقل المعياري ومنهجية التأويل العلمي.